

من أجل قيام حركة فكرية حنيفة

عرض مشاهد الكوثر والحوّض على ميزان الآية



محمد علي الباصومي

## مُحتويات البحث

01	.....المقدمة
02	.....1. محاولة لتلمس المراد القرآني من كلمة "الكوثر"
02	.....1.1 أقوال السلف في المراد من كلمة "كوثر"
02	.....1.2 ملاحظات أولية تُشكك في تفسير السلف لسورة الكوثر
05	.....1.3 معنى "الكوثر" باستقراء القرآن الكريم
07	.....1.4 عرض مفهوم السلف للكوثر وللحوض على ميزان القرآن
08	.....1.5 بحثاً عن السبب المحتمل وراء التفسير السائد لسورة الكوثر
10	.....2. قراءة نقدية للروايات المتعلقة بالكوثر
10	.....2.1 تعدّد وماهية الحوض ومصادره المائية
14	.....2.2 الحدود الجغرافية للحوض النبوي المزعوم
17	.....2.3 الغرّ والتّحجيل كأمارّة لورود الحوض النبوي
19	.....2.4 ورود المهاجرين والأنصار وأهل اليمن الحوض
23	.....2.5 أصناف المخرومين من ورود الحوض والشّرب منه
28	.....3. محاولة للتعرف على المُستفيدين من روايات الحوض
28	.....3.1 روايات مُساعدة على فهم الدور الوظيفي لحوض
29	.....3.2 محاولة لتلمس المقصودين من الطّرد من الحوض
32	.....الخاتمة

## المقدمة

يقول الله سبحانه في أقصر سورة في القرآن: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ \* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ \* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ". وقد ذهب عموم العلماء من الطائفتين إلى القول بأنّ الكوثر يدلّ على الخير الكثير، وذكر من بينها النبوة، والإسلام، والنهر الجاري من الجنة إلى أرض المحشر، والحوض النبوي، والقرآن، وكثرة الأتباع، ورفعة الذكر، والشفاعة، والمعجزات، وإجابة الدعاء... ولكن مع ذلك التوافق، فقد مثّل مفهوم "الكوثر" أحد عناصر التدافع الطائفي بين السنة والشيعة.

ذلك أنّ جمهور أهل السنة غلبوا تعريف الكوثر بأنّه النهر أو الحوض الذي خصّ الله به نبيّه الخاتم يوم القيامة، فيما يرى الشيعة أنّ الكوثر يشير على وجه الخصوص إلى كثرة الذرية من نسل النبي من ولد فاطمة الزهراء، تعويضا له من الله عن حرمانه الذكور. خلافا لهؤلاء وأولئك، حصر بعض المعاصرين الكوثر في القرآن الكريم.

بالإضافة إلى ما سبق، فقد اختلف علماء أهل السنة حول الكثير من التفاصيل المتعلقة بالكوثر، سواء فيما يتعلّق بماهيّته، ومساحته، وموضعه من ساحة الحساب، والناس الذين سيردونه، وتعدّد الأحواض بعدد الرسل والأنبياء...

وسوف أخصّص هذا البحث لمحاولة الإجابة عن الأسئلة التالية: ما المراد القرآني بالكوثر؟ وما هي الصّورة التي نسجها الرّواة عن الكوثر؟ وما مدى تناسق مختلف عناصر هذه الصّورة؟ وما معقوليّة ومقبوليّة هذه الصّورة بميزان القرآن الكريم؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، ستكون البداية بتلمّس المفهوم القرآني لكلمة "كوثر"، ثمّ أعرض تباعا ما وردنا من روايات متعلّقة بالحوض وبالكوثر، لتلازمهما في الرواية، وأعقب على كل مجموعة من الروايات بإبراز وجوه الإستشكال فيها، والتوقّف عند المضامين التي يمكن أن تساعد على التعرّف على المستفيدين منها.

## 1. محاولة لتلمس المراد القرآني من كلمة "الكوثر"

### 1.1 أقوال السلف في المراد من كلمة "كوثر"

يقول العلماء السنّة بأنّ "الكوثر" هو وصف يدلّ في لغة العرب على المبالغة في الكثرة. وأما اصطلاحاً، فقد اختلفوا في مدلول هذه الكلمة على أقوال، أهمّها أنه نهر في الجنة أعطاه الله لنبيّه الخاتم، أو أنّه حوض عظيم يأتيه ماء من نهر الكوثر الذي في الجنة، ويوضع في أرض المحشر يوم القيامة لتردّ عليه أمّة النبي. كذلك اختلف العلماء فيما يتعلّق بموقع الحوض في أرض المحشر، فمنهم من قال إنه يكون بعد الصراط، وأكثرهم قال إنه يكون قبل الصراط، لأنّه يؤخذ لو كان بعد الصراط لما استطاع المرتدّون الوصول إليه، فإنهم يكونون قد سقطوا في النار.

وأحاديث الحوض لا شك في تواترها عند أهل العلم، فقد رواها عن النبي أكثر من خمسين صحابياً، قال القرطبي: "مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدّق به أنّ الله سبحانه قد خصّ نبيّه محمداً بالحوض المصّرّح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصّحيحة الشهيرة التي يَحصل بمجموعها العلم القطعي".

ويؤكّد العلماء على أنّه ليس كل من انتمى للأمة المحمدية سينال نعمة الشرب من الحوض النّبوي، قال القرطبي: "قال علماؤنا: فكلّ من ارتدّ عن دين الله أو أخذ فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض، وأشدّهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، وكذلك الظلمة المُسرّفون في الجور والظلم... وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع".

### 1.2 ملاحظات أولية تُشكّك في تفسير السلف لسورة الكوثر

اختلف العلماء والمفسرون حول معنى كلمة "الأبتر"، فقيل هو من ليس له ولد يحمل اسمه، وقيل هو من لا عقب له ولا نسْل، وقيل هو الشخص الذي لا خير فيه.

والرَّاجِحُ أَنَّ هَذَا اللَّمَزَ لِنَبِيِّنَا الْكَرِيمِ أَرَادَ بِهِ صَاحِبَهُ مَعْنَى انْقِطَاعِ الْعَقَبِ مِنَ الْأَوْلَادِ الذَّكُورِ، إِذْ يَصْعَبُ عَلَى أَيِّ كَانَ التَّعْرِيزُ بِالرَّسُولِ بِسَبَبِ مَا يَعْرِفُ بِهِ مِنْ كَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَظِيمِ أَخْلَاقِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَعْقِلُ أَنْ يَلْمِزَهُ أَحَدُهُمْ بِانْقِطَاعِ الذَّرِّيَّةِ بِإِطْلَاقٍ، خَاصَّةً وَأَنَّ الْمُؤَرِّخُونَ أَخْبَرُونَا أَنَّ النَّبِيَّ رُزِقَ بَعْدَ مِنَ الْبَنَاتِ وَالْأَحْفَادِ.

وَقَدْ قَالَ عُمُومُ الْمَفْسِّرِينَ بِأَنَّ شَأْنَ النَّبِيِّ هُوَ إِذَا سَلَّمْنَا بِأَنَّ شَأْنَ النَّبِيِّ هُوَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ الْقُرَشِيِّ، فَسَيَكُونُ مِنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ أَنْ يَتَوَعَّدَ الْقُرْآنُ بِانْقِطَاعِ عَقْبِهِ مِنَ الذَّكُورِ فِيمَا نَعْلَمُ أَنَّ هُوَ نَفْسَهُ وَالِدَ عَمْرٍو ابْنَ الْعَاصِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَبْنَاءِ!!

ثُمَّ إِذَا سَلَّمْنَا بِأَنَّ شَأْنَ النَّبِيِّ أَرَادَ مِنْ هَذَا التَّوْصِيفِ انْتِقَاصَهُ لَانْقِطَاعِ نَسْلِهِ عَنِ الْوَلَدِ، فَهَلْ نَتَوَقَّعُ أَنْ يُجَارِيَهُمُ الْخَالِقُ بَوَعْدِهِ بِأَنَّهُ سَوْفَ يَرْزُقُ رَسُولَهُ ذَرِّيَّةً وَاسِعَةً؟ ثُمَّ أَلَيْسَ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ إِقْرَارُ ضَمْنِيٍّ مِنَ الْقُرْآنِ بِأَفْضَلِيَّةِ الْوَلَدِ عَلَى الْأُنْثَى؟ أَلَيْسَ أَحَقُّ بِنَا تَنْزِيهِهِ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ؟ أَلَمْ يَذُمَّ الْقُرْآنُ عَقْلِيَّةَ التَّقَاخُرِ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ؟ وَهَلْ يَتَنَاسَبُ أَنْ نَفْهَمُ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ الْخَاتَمِ هُوَ الذَّرِّيَّةُ، فِيمَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ فَقَدْ مَعْظَمُ أَبْنَائِهِ فِي حَيَاتِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا؟ وَمَاذَا سَيُضِرُّ النَّبِيَّ أَنْ تَنْقَطِعَ ذَرِّيَّتُهُ بَعْدَهُ؟ فَهَلْ سَيَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ وَمُنَاتِ الْآيَاتِ تُذَكِّرُنَا بِهِ وَبِفَرِيضَةِ اتِّبَاعِهِ؟

وَمِنْ عَنَاصِرِ ضَعْفِ تَفْسِيرِ السَّلَفِ لِسُورَةِ الْكُوثَرِ أَنَّ مُقْتَضَى تَفْسِيرِ "وَأَنْحَرْ" أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ حَوْلَ النَّحْرِ يَوْمَ الْأَضْحَى، وَالْمَعْلُومُ أَنَّ النَّبِيَّ حَجَّ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ لِلْهِجْرَةِ، فَتَكُونُ السُّورَةُ مَدَنِيَّةً (خِلَافًا لِقَوْلِ الْجُمْهُورِ بِأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ، بِدَلِيلِ مَا مَا وَرَدَ حَوْلَ مَنَاسِبَةِ نَزُولِهَا)، فَضِلَّا عَمَّا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهَرِنَا، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ أَنْزَلْتَ عَلَيَّ آفَا سُورَةٍ، فَقَرَأَ "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ"، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَنَسَ أَسْلَمَ فِي صَدْرِ الْهِجْرَةِ.

لَقَدْ عَرَضَ لَنَا الْقُرْآنُ الْكَثِيرَ مِنَ الْإِتِّهَامَاتِ الَّتِي وَجَّهَهَا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا مَا هُوَ يَتَعَلَّقُ بِذَرَّتِهِ، بَلْ كَانَ مَعْظَمُهَا مُرْتَبِطًا بِمَهْمَّتِهِ الرَّسَالِيَّةِ

وبالقرآن الكريم، فاتَّهَمُوا الوحي النَّازل عليه بالشعر والكذب والإفتراء والسَّحر والتَّفَرُّقَة بين النَّاس، كما اتَّهَمُوهُ بالبشرية وبعدم انتماءه للطبقة الأرسقراطية.

يؤكد ما سبق قوله سبحانه: "ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (... ) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ \* فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ"، إذ فيه إشارة إلى أن موضوع المُمارة بين الرسول وخصومه كان دوما كتاب الله، والذي لا يقبل المقايضة على مبادئ الحرية والمساواة والعدالة.

في ذات السياق، فلقد أغنى الله نبيّه بزيّنة القناعة والصبر والتّعالى على مصائب الحياة الشّخصية، فهو الذي فقد البنات والأولاد واحداً بعد الآخر، ولكن لم نر لهذا الحزن أثرا عليه بيّنا عليه في سيرته العطرة المسطورة في الكتاب. مقابل ما سبق، في حين وردت عديد الآيات التي تُسلّي النبي وتدفع عنه شعوره بالهمّ بسبب إعراض قومه عن الرّسالة التي أتاهم بها: "فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ"...

وعلى القول بأنّ الكوثر هو نهر كلّف الله نبيّه بأن يسقي منه أخيار أمّته، فما الخير في الإختصاص بهذا النهر، والأنهار متوقّرة لجميع ساكني الجنّة بأذواق مُتعدّدة؟ هذا وقد وردت "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" 34 مرّة في القرآن، أكثرها تفصيلا قوله سبحانه: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى". وحتى على قول جمهور العلماء بأنّ الكوثر يقع في أرض المحشر، فهل سيقف النبي على ضفاف حوض بمساحة آلاف الكيلومترات ليكرم المستحقّين من أمّته للإرتواء؟!!

من ناحية أخرى، فمن الواضح أنّ شأني النبي أراد تغييره على نقص يراه فيه في هذه الدّنيا، وعليه، فإنّ المناسب أن يكون الردّ الإلهي على هذا الشّخص بذكر العطايا

الإلهية والخير الوفير الذي ناله رسوله في الدنيا، وليس في الآخرة، لكفر هذا الشانئ وأمثاله بيوم الدين أصلاً، ولأنه لا منافسة هناك بين هذا الشانئ وبين الرسول.

ومن أسباب الشك في تفسير السلف للكوثر أن القرآن نبأنا عما من الله سبحانه على كثير من عباده المرسلين، ومنها إهداء إبراهيم الذرية على كبر سنّه، وتعليم يوسف التأويل، وتسخير عديد المخلوقات لسليمان، وإظهار موسى على فرعون... ورسولنا ناله أيضاً نصيب كبير من النعم الإلهية، فلا يُعقل أن لم يُبينها ويُصرّح بها. هذا فضلاً عن أنه لم يأت في القرآن مطلقاً ما يصف الجزاء في الآخرة لمُعَيّن.

### **1.3 معنى "الكوثر" باستقراء القرآن الكريم**

يُستخلص من الفقرة السابقة ضعف تفسير السلف لسورة الكوثر، وخاصةً مقدمتها لعدة أسباب، أهمّها أنه غالباً ما وجهت الرواية دلالات الآية، وأن نصف الكلمات فيها لم ترد إلا في نص هذه السورة (أَعْطَيْنَاكَ - الْكَوْثَرَ - وَانْحَزْ - شَانِيكَ - الْأَبْتَرُ). وإذا كانت هناك ما يكفي من الحُجج لردّ ما فسّر به المفسّرون به الكوثر من أنه نهر أو حوض خصّ الله به نبيّه يوم القيامة، إلا أنه قد يكون من المهمّ المساهمة في تدبّر سورة الكوثر بحيث تتناسب مخرجات هذا التدبّر مع منطوق سورة الكوثر.

يتفق العلماء أن المراد من "الكوثر" هو كثيرة الخير، وهو قول يبرّره عودة هذه الكلمة إلى الجذر "كثر"، الذي يفيد معنى زيادة عناصر وأفراد الشيء، والذي من موارده: "وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ" - "أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ". وبإدراج حرف الواو داخل هذا الجذر، يُضاف إلى المعنى الأصلي فكرة الإستمرارية.

وبخصوص طبيعة الخيرات الإلهي التي أنعم الله بها على نبيّه الخاتم بصفة مستمرة ومُسترسلة، ذكر البعض إحاطته اجتماعياً واقتصادياً منذ صغره، وهدايته إلى الإسلام، واصطفائه على الناس لتبليغ رسالته، وما من الله عليه بالزّوجات والبنات

والأحفاد، وباختضان رعيٍّ مخلص من المهاجرين والأنصار لدعوته، وبالظهور على الكبراء والظالمين، وبفتح مكة، وبمغفرة ذنوبه جميعا...

على أن بعض المفكرين اختلفوا بخصوص عطية القرآن، فعدّها بعضهم إحدى أهم النعم الإلهية، فيما حصر بعضهم الآخر "الكوثر" في القرآن الكريم، دليلهم في ذلك كثرة النصوص التي تعلي من شأن هذا الكتاب، وترسم علاقة وثيقة بينه وبين النبي الخاتم، ومنها: "وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا" - "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" - "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ" - "وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ".

على أن ما يشكك في القول السابق أن كلمة "أَعْطَيْنَاكَ" التي تعلقت بالكوثر. فهذا الفعل "أعطى" يعني: مدّ الشيء ليتناوله الآخر، ووردت في مواضع تدول تتعلق بأشياء مادية، لا معنوية، على نحو النصوص التالية: "رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" - "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى \* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى \* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى" - "حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" - "وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا" - "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (... ) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا".

وعليه، فإنّ الراجح أن لا تنحصر النعم الإلهية المقصودة بلفظ "الكوثر" القرآن الكريم، برغم أنه أعظم الهدايا، واستمرار نزوله على مدى سنوات، وإنّما تشمل هذه النعم المادية منها. يُعاضد ما سبق استخدام السورة لصفة الربوبية (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)، والمتعلقة بعالم الخلق والمحسوس، وأيضاً استخدام صفة العطاء الإلهي للنبي الكريم للحديث عن نعم مادية في النص التالي: "وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى \* أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى \* وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى \* وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى".

ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أن سورة الكوثر تحدثت عن عطايا إلهية دنيوية لرسوله الكريم، وأنه سبحانه أمر نبيه بالتعبير عن امتنانه عن هذه النعم بالصلاة



والتحر، وتعنيان مزيد توثيق النبي لصلاته مع الخالق وإطعام الفقراء والمساكين ممّا رزقه الله سبحانه (تفسير لمعنى التحر يستأنس بمعناها المتداول بسبب استحالة صعوبة استقراءه من النصّ القرآني، ويقدر ما يشبه التلازم بين الصلاة والزكاة في الكتاب، ويأخذ بعين الاعتبار وما أخبرنا به القرآن من فتح النبي بيوته لإطاع المحتجين)، ثمّ كان تذييل السّورة بلمز أيّ شخص انتقص من شأن النبي.

#### **1.4 عرض مفهوم السلف للكوثر والحوض على ميزان القرآن**

إنّ القرآن الكريم هو كتابٌ كاملٌ ومُفصلٌ ومُحكّم، وهو الذي يُزود النبي بغيوب تتعالى على إدراك العقل البشري (مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِيَكُم). وعليه، فلو كان الكوثر يعنى نهرا أو حوضا عند الحساب أو عند الجزاء لجاء ذكره أكثر من مرّة، خاصّة والمفروض أنّه هديّة قيّمة للمؤمنين.

وإنّ القول بوجود حوض كبير على أرض المحشر تصبّ فيها أنهارٌ من الجنّة يعبر عن صورة لا يُصدّقها القرآن الكريم. فما يمكن فهمه منه أنّه بمجرد وقوع النفخة الثانية في الصّور، سيتمّ إحياء جميع الإنس والجنّ ليشهدوا نتائج أعمالهم، وسيكون هذا الكوكب قد تمّت إعادة تشكيله بطريقة تكون أرضه منبسطة لا علامة فيها، فلا توجد ارتفاعات ولا منخفضات في أرض المحشر، صورة نفهمها من قوله سبحانه: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا \* فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا \* لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا". صورة لا يتناسب معها القول بوجود حوض شديد الاتساع.

ومن ضمن الإشكالات القائمة ما ورد من أوصاف حول هذا الحوض تجعله وكأنّه قطعة من نعيم الجنّة، حوضٌ سوف يتمتّع جزء من الأمة المحمّديّة بمائه قبل استكمال مراحل الحساب. وما سبق لا يبدو متناسبا مع النّموذج الذي نقرأه في عديد المواضع القرآنية عن تتابع الأحداث في الآخرة، والذي سيشهد التّرتيب التّالي: امتحانٌ فحسابٌ فجزاء، نموذج بسيط وحاسم. هذا بالإضافة إلى ما أشرت إليه سابق من أنّ الحديث

عن شرب أصحاب الجنة إلى حدّ الارتواء النهائي يتعارض تنتقي معه قيمة الأعين والأنهار التي أعدّها الله سبحانه لعباده ليتمتعوا بشربها في جنّات النّعيم!!

وأسأل من ناحية أخرى: هل يملك إنسان أن يتدخل لغيره، والأمر كلّ الله تعالى يوم القيامة؟ وهل سيكون الإنسان منشغلا إلا بنفسه، مهما علا قدره في الدنيا، لقوله جلّ وعلا بإطلاق: "لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ" - "وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا" - "وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ؟"

### 1.5 بحثاً عن السبب المحتمل وراء التفسير السائد لسورة الكوثر

سأحاول في هذه الفقرة البحث في سبب تحوّل الكوثر إلى موضوعٍ للدّفاع الطائفي بين السنّة والشيعّة، مستصحباً العلاقة الوثيقة بين النّشاط الرّوائي والمجال السّياسي، خاصّة وأنّ الرّواية نشأت مع الإنقسام السّياسي بين المسلمين.

وهذه المحاولة تنطلق ممّا سبق بيانه في الفقرة السّابقة، وما أقدره من أنّ سورة الكوثر نزلت في فترة متأخّرة، لمّا تتالت العطايا المادّية على النّبي وأصحابه، ربّما تكون بعد فتح مكّة (8 هـ)، أو بعد معركة تبوك (9 هـ)، حين غنم المسلمون الكثير، ودخل النّاس في الإسلام أفواجا. دليلي على ما سبق تخصيص سورة منفصلة لتكريم النّبي على ما قدّمه على امتداد جزاء له مسيرته النّبويّة، وترتيب سورة الكوثر قريبا من سورة النّصر، والتي تتميّز ببُنية مشابهة لسورة الكوثر.

ومن الطّبيعي أنّ يثير نجاح النّبي المشاعر السّلبية عند خصومه. ويبدو أنّ أكثر النّاس حقدا على النّبي، خاصّة بعد تحييد المنافقين واليهود هم كبراء قريش الذين أسلموا بعد فتح مكّة (والذين عُرفوا بلقب: الطّلقاء)، هؤلاء الذين لم يألوا جهدا في مُحاربة النّبي، وهو اليتيم الذي نجح في تحطيم نظام حكمهم القائم على الطّبقيّة والعصبية، والذي سلبهم نفوذهم الدّيني والإجتماعي والإقتصادي، والذي نجح في تأسيس نظام حكم أغرى العرب من كافة أنحاء الجزيرة للإتحاق به.

ومن أهمّ "الطّلقاء" الحَكَم بن العاص، حيث تذكر بعض المصادر أنّ النّبي الكريم نفاه من المدينة إلى الطّائف لكونه حاكّي مشيئته عليه السلام، كما نقلت أنّه تجسّس عليه وهو في بيته. ويبدو أنّ الحكم بن العاص بقي في منفاه في الطّائف في عهد الخليفَتَيْن أبي بكر وعمر، حتّى عفا عنه عثمان وسمح له بمُغادرة الطّائف.

وطبيعيّ أن يحاول بعض الرّواة التّكتم على الأعمال الشنيعة التي قد يكون الحكم بن العاص قد قام بها تُجاه نبيّنا الكريم، باعتبار أنّ الحكم هو والد مروان الذي أصبح فيما بعد أميراً للمؤمنين (وللإشارة فمروان كان له دورٌ خطير في إذكاء الفتنة، وهو الذي قتل طلحة، والذي خرج على ابن الزبير وقد بايعه أكثر النّاس). وعليه، فقد يكون من ضمن المقصودين الفعليّين بآخر سورة الكوثر الحكم بن العاص، الأمر الذي عمل بعض شيعة الأمويّين على التّشويش عليه، بصناعة سببٍ للنّزول يُستبدل فيه إسم الحكم بن العاص بإسمٍ مشابه له، هو اسم العاص بن وائل.

ولأنّ بعض المفاهيم يمكن أن تتعدّد وتتشابك أسباب ظهورها، فتقدّيري أنّه يمكن استحضار الطّائفيّة للبحث في هذه القضية، حيث مثّلت الكوثر والحوض أحد عناصر التّدافع الفكريّ بين السّنة والشيعة، وفيما يلي تفصيل هذا الرّأي.

التقط الشيعة ورود كلمة "الأبتر"، والتي يُمكن تأويلها بانقطاع العقب من الأولاد الذّكور، للقول ضمناً بأنّ الله تعالى ردّ على شائئ نبيّه بأنّ وعده بأن يرزقه بذريّة يتجاوز عددها ذريّة هذا الأبتر. وهذا التّأويل يخدم الشيعة بوصفه يقول ضمناً بأنّ ذريّة عليّ حصلت على مُباركة إلهيّة. وبطبيعة الحال، لم يكن أهل السّنة ليقبلوا بهذا التفسير الذي يخدم المشروع السياسي والفكري لخصومهم، فكان اختراع روايات تفسّر الكوثر بأنّه حوض سيسقي منه فقط غير المرتدّين من أصحابه.

## 2. قراءة نقدية للرواية المتعلقة بالكوثر

### 2.1 تعدد وماهية الحوض ومصادره المائية

#### 2.1.1 أهم الروايات الواردة في هذا الباب

1- عن سمرة بن جندب عن النبي (ص): إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر وارداً، وإنني أرجو أن أكون أكثرهم وارداً (الطبراني والترمذي، قال عموم المحدثين بضعفه، وصححه الألباني بطرقه)

2- عن أنس قال: بينما نحن عند النبي إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ سورة، فقرأ "إنا أعطيناك الكوثر"، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهرٌ وعدّيته ربّي، عليه خيرٌ كثير، وهو حوض تردُّ عليه أمّتي يوم القيامة (مسلم)

3- عن أنس عن النبي (ص): بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهرٍ حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فضرب الملك بيده، فإذا طينه مسكٌ أزفر (البخاري)

4- عن أنس عن النبي (ص): أُعطيت الكوثر، فإذا هو نهرٌ يجري على ظهر الأرض، حافتاه قباب اللؤلؤ، ليس مسقوفاً، فضربتُ بيدي إلى ترّبته، فإذا ترّبته مسكٌ أذفر (صافي)، وحصباؤه اللؤلؤ (أحمد، وصححه الأرناؤوط والألباني)

5- عن ابن عمر عن النبي (ص): الكوثر نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجرّاه على الدرّ والياقوت، ترّبته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض (والصواب: أشدّ بياضاً!!) من الثلج (ابن ماجه والترمذي، وصححه الألباني)

6- عن أنس عن النبي (عن الكوثري) قال: ذاك نهر أعطانيه الله، أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجوز (الإبل)!! قال عمر: إنّ تلك لطير ناعمة، فقال: أكلتها أحسن منها يا عمر (الترمذي، وقال الألباني حسن صحيح)

7- عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله، ما آنية الحوض؟ قال: والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها... يشخب (يصب) فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ (مسلم)

8- عن ثوبان عن النبي (ص): إني ليعقر حوضي أدود الناس لأهل اليمن... يغت (يصب) فيه ميزابان يمدّانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق (مسلم)

9- عن أبي برزة عن النبي (ص): ما بين ناحيتي حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء... فيه مرزابان ينبعثان من الجنة من ورق (فضّة) وذهب (الطبراني وابن حبان، وقال الألباني: حسن صحيح)

10- عن أنس قال: أظنكم تظنون أنّ أنهار الجنة أخذود في الأرض؟ لا والله، إنها لسائحة على وجه الأرض، إحدى حافتيها اللؤلؤ، والأخرى الياقوت، وطينها المسك الأذفر (أحمد وأبو يعلى والبزار، وصحّحه ابن حبان)

11- عن يزيد بين الأحنس قال: يا رسول الله، فما سعة حوضك؟ قال: ما بين عدن إلى عمان، وإن فيه متعبين من ذهب وفضة، قال: فما ماء حوضك يا نبي الله؟ قال: أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى مذاقه من العسل وأطيب رائحة من المسك، من شرب منه لم يظمأ أبداً، ولم يسود وجهه أبداً (أحمد وابن حبان، قال المنذري صحيح أو حسن، وصحّحه الأرناؤوط والألباني)

12- عن أبي سبرة قال: كان عبید الله بن زياد يسأل عن الحوض... وقال (النبي): فيه مثل النجوم أبريق، شرابه أشدّ بياضاً من الفضّة، من شرب منه مشرباً لم يظمأ بعده أبداً (أحمد، وثقه البوصيري، وصحّحه أحمد شاكر)

- 13- عن ابن عمرو عن النَّبي (ص): حَوْضي... ماؤه أبيض من اللبن (متفق عليه)
- 14- عن حكيم بن معاوية عن النَّبي (ص): إِنَّ في الجنة بَحْرُ العسل، وبَحْرُ الخمر، وبَحْرُ اللبن، وبَحْرُ الماء، ثم تنشقّ الأنهار بعد (أحمد وابن حبان والطبراني، والترمذي وصحَّحه، وصحَّحه الألباني)
- 15- عن أنس عن النَّبي (ص): رُفِعَتْ لي السَّدرَة، فإذا أربعة أنهار... فأما الظاهران فالنيل والفرات، وأما الباطنان فنهران في الجنة (البخاري)
- 16- عن أبي هريرة عن النَّبي (ص) قال: سيحان وجيحان والفرات والنيل، كلٌّ من أنهار الجنة (مسلم)

### 2.1.2 تعقيبات واستشكالات

أسأل بخصوص الرواية الأولى: هل الكوثر خاصٌّ بالنبي الخاتم أم إنَّه لكل نبيٍّ حَوْضا خاصًّا به على أرض المحشر؟ فإذا كان الحَوْض واحدًا فما ذنب بقيَّة الأمم وفيهم الأنبياء والصَّالحين ليبقوا على ضماهم حتَّى دخول الجنَّة؟ وإذا كان لكل نبيٍّ حَوْضا يستقي منه أمَّته فلماذا لم يردَّ هذا الخبر من طريق صحيح السَّنَد؟ وهل سيتباهى الأنبياء بكثرة أتباعهم يوم القيامة؟ وهل كثرة الأتباع دليل على حسن أداء الرِّسول أو النَّبي لمهامه؟ ألم يقتل بنو إسرائيل عددًا من أنبيائهم؟

وللإشارة، فإنَّ نهري دجلة والفرات يتقاربان من حيث عديد الخصائص، وكلاهما يمرّ عبر مئات الكيلومترات في العراق، إلا أنَّ دجلة يتَّخذ بعد ذلك مُنحنا يبعده عن سوريا (الشام)، فيما يواصل نهر الفرات طريقه قاطعا سوريا على امتداد 610 كم!!

وأسأل: هل يتناسب أن يعلم الرِّسول بوجود حَوْضه عن طريق نزول سورة الكوثر وهو في حالة إغفاء (2)؟! ومتى سار النَّبي في الجنَّة: في الحلم أو في الواقع (3)؟ أليست الجنَّة سوف تهَيَّئ في مرحلة وجوديَّة لاحقة، يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض؟

ومن الذي ضرب بيده إلى تربة الكوثر: جبريل أو النبي (3 و 4)؟ أليست صورة نهر الكوثر في الرواية غريبة لكثرة ما فيها من الذهب والحجارة الكريمة (3 - 5)؟ وهل كان القرآن ليغفل عن ذكر مثل هذا النهر العجيب، أو عن ذكر حوض النبي، فيما نجده يرسم لنا مشاهد الحساب والجزاء بدقة بالغة، إلى حدّ توصيف ملامح الناس وأقوالهم وأحاسيسهم؟ وما هي قصّة الطيور التي تعيش في الحوض (6)؟!!

وأسأل: لماذا غاب نهر الكوثر عند حديث النبي عن حوضه (7 - 9)؟ وما هو مصدر الميزابان الذان يصبّان في الحوض النبوي؟ وهل أحدهما أفضل من الآخر، بحث يكون من الذهب فيما يكون الآخر من الفضة؟ وكيف سيكون النبي مسؤولاً عن حوض يتّسع لمئات آلاف الكيلومترات المربعة، ومتوقّف فيه ما لا يُحصى من الأواني ليشرّب منها الناس؟ ثمّ ألن يؤثّر عدم الإحساس بالضّمّأ لمن شرب من الحوض في مستوى متعته بما في الجنّة من أشربة لذیذة (11 و 12)؟ ألا يتناقض القول السابق مع ما أخرجه النسائي بإسناد صحّحه الألباني عن سهل بن سعد مرفوعاً: للصّائمين بابٌ في الجنّة يُقال له الرّيان... من دخل فيه شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً؟

وأسأل بخصوص الروايتين 15 و 16: هل ستتبدّل الأرض غير الأرض ومع ذلك يبقى النيل والفرات؟ وهل الإبقاء على النيل والفرات كأنهار تنجو من إعادة التّشكل الكامل للأرض وتبديلها هديّة خاصّة للشّام ومصر دون بقية البلدان؟ أليس من الواضح أنّ للأمر علاقة بالحلف بين معاوية (الأمير على دمشق) وعمرو بن العاص (الأمير على مصر)، حيث أدى قيام هذا الحلف إلى قلب المعادلة السياسية والميدانيّة لصالح معاوية في مواجهته لعليّ؟ ألا يمكن أن يكون الرواة قد استأنسوا بما نقلوه إلينا بما تلقّوه عن بعض أصدقائهم من اليهود، خاصّة وأنّنا نقرأ في سفر التكوين، الأصحاح 2، الآيات 7- 14 ما يلي: "وكان نهرٌ يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس \* اسم الواحد فيثون (...) واسم النهر الثاني جيحون... واسم النهر الثالث حدّقل... والنهر الرابع الفرات"؟

## 2.2 الحدود الجغرافية للحوض النبوي المزعوم

### 2.2.1 أهم الروايات الواردة في هذا الباب

- 1- عن عبد الله بن عمرو عن النبي (ص): حَوْضِي مسيرة شهر (متفق عليه)
- 2- عن أبي بَرْزَةَ عن النبي (ص): ما بين ناحيتي حَوْضِي كما بين أُيْلَةَ إلى صنعاء مسيرة شهر، عَرْضُهُ كطوله (الطبراني وابن حبان، وقال الألباني حسن صحيح)
- 3- عن عبيد الله بن زياد عن النبي (ص): عَرْضُهُ (الحوض) وطولُهُ واحدٌ، وهو كما بين أُيْلَةَ ومَكَّةَ، وهو مسيرة شهر (أحمد، وثقه البوصيري، وصحَّه شاكر)
- 4- عن ابن عمر عن النبي (ص): إِنَّ أَمَامَكُمْ حَوْضًا ما بين ناحيتَيْهِ كما بين جَرْبًا وأَذْرَحَ... قَرَيْتَيْنِ بالشَّامِ، بينهما مسيرة ثلاث لَيَالٍ، وبلغَ: ثلاثة أَيام (مسلم)
- 5- عن أنس عن النبي (ص): إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كما بين أُيْلَةَ (قيل هي مدينة بالشَّامِ على الساحل، وقيل هو جبل بين مكة والمدينة) وصنعاء من اليمن (متفق عليه)
- 6- عن جابر بن سمرة عن النبي (ص): أَلَا إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنَّ بُعْدَ ما بين طرفَيْهِ كما بين صنعاء وأُيْلَةَ، كَأَنَّ الْأَبَارِيقَ فِيهِ النُّجُومَ (مسلم)
- 7- عن أبي هريرة عن النبي (ص): إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدَ مِنْ أُيْلَةَ مِنْ عَدَنَ (مسلم)
- 8- عن أبي ذرٍّ مرفوعًا: عَرْضُهُ (الحوض) مثل طوله، ما بين عمان إلى أُيْلَةَ (مسلم)
- 9- عن حارثة بن وهب عن النبي (ص): إِنَّ حَوْضَهُ ما بين صنعاء والمدينة (مسلم)
- 10- عن عتبة السلمي قال: قام أعرابيٌّ إلى النبي، فقال: ما حَوْضُكَ الَّذِي تُحَدِّثُ عَنْهُ؟ فقال: هو كما بين صنعاء إلى بصرى (ابن حبان، وصحَّه الألباني صحيح)، وبلغَ عند غيره بإسناد صحَّحه الألباني: كما بين البَيْضَاءِ (جبل مثل أحد) إلى بصرى



- 11- عن ثوبان عن النَّبي (ص): إني لِعُقْر حَوْضِي... فسُئِلَ عن عرضه، فقال من مقامي إلى عمان (مسلم)
- 12- عن ثوبان عن النَّبي (ص): حَوْضِي من عدن إلى عمان البلقاء (الترمذي وابن ماجه، ونحوهما أحمد عن ابن عمر، وصحَّحه الألباني)
- 13- عن أبي أمامة: فقال يزيد بن الأخنس: فما سعة حَوْضِكَ يا نبيَّ الله؟ قال: كما بين عدن إلى عمان، وأوسع وأوسع (أحمد والطبراني، وصحَّحه الهيثمي والألباني)
- 14- عن ابن عمر عن النَّبي (ص): إني فرط لكم على الحَوْض، وإنَّ سَعَتَهُ ما بين الكوفة إلى الحجر الأسود (الحاكم وقال على شرطهما)
- 15- عن عقبة بن عامر قال: صَلَّى رسول الله على قتلى أُحُدْ (بعد 8 سنوات)... فقال إني فرطكم على الحَوْض، وإنَّ عَرْضَهُ كما بين أيلة إلى الجحفة (مسلم)
- 16- عن أبي سعيد عن النَّبي (ص): إنَّ لي حَوْضًا ما بين الكعبة وبيت المقدس، وإنِّي لأكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة (ابن ماجه، ضعّفه البوصيري، وصحَّحه الألباني)
- 17- عن أبي هريرة عن النبي: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حَوْضِي (متفق عليه)
- 18- عن أنس قال: سألتُ النَّبي أنْ يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قلتُ: يا رسول الله، فأين أطلبك؟ قال: اطلبني أوّل ما تطلبني على الصّراط، قلتُ: فإنّ لم ألقك على الصّراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان، قلتُ: فإنّ لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبني عند الحوض (أحمد، والترمذي وحسنّه، وصحَّحه الألباني)
- 19- عن سهل بن سعد عن النَّبي (ص): أنا فرطكم على الحَوْض... وليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم (متفق عليه)

## 2.2.2 تعقيبات واستشكالات

نستخلص مما سبق أنّ طول الحوض يُساوي عرضه، ولكنّ تحديد هذه المسافة يبقى متعذراً، فبعض الروايات أخبرتنا أنّ المسافة تُعادل مسيرة شهر (1 - 3)، مقابل رواية أخرى تقول بأنّ هذه المسافة تعادل مسير ثلاثة أيام (4)!!

كذلك اضطربت الرواية في تمثيلها لمساحة الحوض، حيث قالت بأنّ بُعد ما بين طرفيه يُعادل المسافات التي تفصل بين كلّ من: "جزبا - أذرح"، و"أيلة - صنعاء"، و"أيلة - عدن"، و"عمان - أيلة"، و"صنعاء - المدينة"، و"صنعاء - بصرى"، و"المدينة - عمان"، و"عدن - عمان"، و"أيلة - الجحفة"، و"الكوفة - مكة"، و"الكعبة - بيت المقدس"!! اضطرابات يتّسع مداها باختلاف العلماء حول مواضع الأماكن المذكورة في هذه الروايات: أيلة وجزبا وأذرح وعمان البلقاء.

وأسأل: ما سبب اختيار معالم عمرانيّة بعينها لوصف طول الحوض وعرضه؟ وحيث أنّ معظم هذه المعالم تقع في الشام (مركز حكم معاوية) أو اليمن والبحرين (الموطن الأصلي لأقطاب النشاط الرّوائي، والذين كان الكثير منهم مواليا للأُمويين)، ألا يقوّي ذلك من حالة الشكّ في وجود علاقة وثيقة بين مجالي السياسة والرواية؟ ألم تكن هجر واليمامة والحيرة ودومة الجندل وتيماء والبتراء وجميز وغيرها من قرى الجزيرة العربية (وهي مراكز الأسواق المعروفة في العصر الجاهلي)، أو بابل والقسطنطينيّة... أكثر شهرة من المواضع التي وقع ذكرها في الروايات؟

ومن وجوه الإشكال في الروايات المتعلّقة بالحوض ما يلي: هل إنّ الحوض موجود في مكان مُعيّن من الفضاء يقع مباشرة فوق الرّوضة (17)؟! وما هو موقع الحوض من الصّراط يوم القيامة؟ فحسب بعض الروايات، فإنّ الحوض يصبّ فيه ميزابان مصدر مائهما من الجنة، ومعنى ذلك أنّ هذا الحوض موجود بعد الجسر (الصراط)، ليكون بذلك مجاوراً للجنة، ويكون النّاس بعد أن يجتازوا هذا الجسر يقفون في أرض

دون الجنة. وهذه الصورة الجغرافية يوافق عليها متن الرواية 18، والتي نفهم منها ترتيباً ضمنياً يؤكد أسبقية الحوض على المرور على الصراط.

ولكن في المقابل، نجد أنّ عديد الروايات تُشير إلى أنّ الحوض يورد قبل الصراط (19 مثلاً)، لأنّه لو كان الورد على الصراط قبل الحوض، للزم ألاّ يُحجب عن الحوض أحدٌ، لأنّ لن يتمكّن من المرور عبر الصراط غير الفائزين برضوان الله سبحانه. كما أنّ من أدلة تقدّم الحوض على الصراط ما يفترضه المنطق من أنّ حاجة الناس إلى الماء تكون أشدّ في بداية الحساب، لا بعد النجاح في الإختبار الرّهيب الذي يُمثّله المرور على الجسر المعلق فوق جهنّم.

### 2.3.1 الغرّ والتّحجيل كأمانة لورد الحوض النّبوي

#### 2.3.1 أهمّ الروايات الواردة في هذا الباب

1- عن أبي هريرة عن النّبي (ص): إنّ أمّتي يدعون يوم القيامة غرّاً مُحجّلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل (البخاري)

2- عن أبي هريرة عن النّبي (ص): إنّ حوضي أبعد من أيلة من عدن لهو أشدّ بياضاً من الثلج... وإني لأصدّ الناس عنه كما يصدّ الرّجل إبل الناس عن حوضه، قالوا: يا رسول الله، أتعرفنا يومئذ؟ قال: نعم، لكم سيماء ليست لأحدٍ من الأمم، تردّون عليّ غرّاً مُحجّلين من أثر الوضوء (مسلم، وأخرج نحوه عن حذيفة)

3- عن أبي هريرة أنّ رسول الله أتى المقبرة فقال: ودّدت أنّا قد رأينا إخواننا... فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمّتك يا رسول الله؟ فقال: رأييت لو أنّ رجلاً له خيلٌ غرٌّ مُحجّلة بين ظهريّ خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غرّاً مُحجّلين من الوضوء (مسلم)

4- عن نعيم بن عبد الله المجرم قال: رأيت أبا هريرة يتوضأ، فغسل وجهه فأسبغ الوضوء، ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد (وبلفظ: فغسل وجهه ويديه حتى كاد يبلغ المنكبين، ثم غسل رجليه حتى رفع إلى الساقين)... ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ، وقال: قال رسول الله: أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجّيله (مسلم)

5- عن أبي حازم قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمدّ يده حتى تبلغ إبطه، فقلت له: يا أبا هريرة، ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ، أنتم ههنا؟ لو علمت أنكم ههنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعتُ خليلي (ص) يقول: تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء (مسلم)

### 2.3.2 تعقيبات واستشكالات

هل يصح أن يصف النبي المؤمنين الحائزين على رضا الخالق بأوصاف مُخصّصة للإبل أو للخليل، ولو من باب الرّمز (مع الإشارة إلى أنّ الغرّة هي بياض في جبهة الفرس، وأنّ التّحجيل هو بياض في يديها ورجليها)؟ ألم يكن الأنسب به (ص)، وهو المُتشبّع بكلام ربّ العزّة، أن يصفهم بما وصف الله سبحانه به عباده، بأنّ وجوههم بيضٌ مُسفرة ضاحكة مُستبشرة؟ ثم أليست هذه الملامح على وجوه أصحاب اليمين من أتباع جميع الرّسالات الإلهية، بغضّ النّظر عن صور مناسكهم التعبدية؟

وأسأل: هل يُمكن أن يكون إسباغ الماء على أعضاء المسلم دليلاً على حسن تعبّده وصلاحه؟ ألم نقرأ في التّاريخ عن مجرمين قتلوا عشرات الآلاف من الأبرياء مع أنّهم كانوا أئمّة للنّاس في الصّلاة؟ أليس ساذجاً تقوّل نبينا الكريم ما مفاده أنّ مستوى وصول الماء في الوضوء يزيد من قوّة السيما الدالّة على الإلتزام بأوامر ونواهي الرّسالة الخاتمة، لتحلّ ضمنياً مكان مُراكمة العمل الصّالح؟

ثم كيف يمكن تبرير محالة إخفاء أبو هريرة للطريقة المثلى للقيام بالوضوء، وهي إسباغ الوضوء وإيصاله إلى أقصى حدّ ممكن من أعضاء الجسد المشمولة بالوضوء؟ وهل من العدالة أن يخصّ أحد الصّحابة الخير لنفسه دون غيره من المسلمين؟ وما أدرانا إن استأثر أبو هريرة ببعض ما تعلّمه من النّبي لنفسه؟...

## **2.4 ورود المهاجرين والأنصار وأهل اليمن الحوض**

### **2.4.1 أهمّ الروايات الواردة في هذا الباب**

1- عن ابن عمر عن النّبي (ص): حوْضي كما بين عدن وعمان... أوّل الناس عليه ورودًا صعاليك المهاجرين... الشّعثة رؤوسهم، الشّحبة وجوههم، الدّنسة ثيابهم، لا تُفتح لهم السّدّد (قيل: أي لا يتردّدون على السلاطين) ولا ينكحون المنعمات، الذين يُعطون كل الذي عليهم ولا يأخذون كل الذي لهم (أحمد، وصحّحه الألباني لغيره، ونحوه عند الطبراني مختصرًا عن أبي أمامة بإسناد صحّحه الألباني لغيره)

2- عن أبي سلام الحبشي قال: بعث إليّ عمر بن عبد العزيز... فقال: بلغني عنك حديث تُحدّثه عن ثوبان عن رسول الله في الحوض، فأحببتُ أن تُشافهني به، فقلتُ: حدثني ثوبان أنّ رسول الله قال: ...وأوّل الناس ورودًا عليه فقراء المهاجرين، الشّعث رؤوسًا الدّنس ثيابًا، الذين لا ينكحون المنعمات ولا تُفتح لهم أبواب السّدّد، فقال عمر: قد أنكحت المنعمات، فاطمة بنت عبد الملك، وفُتحت لي أبواب السّدّد، لا جرّم، لا أغسل رأسي حتى يشعث، ولا ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ!! (الترمذي وابن ماجه، والحاكم وصحّحه، وصحّحه الألباني)

3- عن عتبة السّلمي عن النّبي (ص): أمّا الحوض فيزدحم عليه فقراء المهاجرين الذين يقتلون في سبيل الله ويموتون في سبيل الله (ابن حبان، وصحّحه الألباني)

4- عن عتبة بن عبد السّلمي قال: جاء أعرابيّ إلى رسول الله، فقال: ما حوضك الذي تُحدّث عنه؟ قال: ...يمدّني الله فيه بكراع، لا يدري إنسان ممن خلق أين طرفيه،

فكَبَّرَ عُمَرُ، فقال رسول الله: أَمَّا الْحَوْضُ فَيَزِدُّكُمْ عَلَيْهِ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ، الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَمُوتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ يوردَنِي اللَّهُ الْكَرَاعَ فَأَشْرَبَ مِنْهُ (أحمد وابن حبان، قال المنذري: صحيح أو حسن، وصححه الألباني)

5- عن يحيى بن جعدة قال: عاد خَبَابًا نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، فَقَالُوا: أَبْشُرْ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، تَرُدُّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْحَوْضَ، فَقَالَ: كَيْفَ بِهَذَا (وَأَشَارَ إِلَى أَعْلَى الْبَيْتِ وَأَسْفَلِهِ) وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنَّمَا يَكْفِي أَحَدَكُمْ كَزَادَ الرَّكَّابِ (الطبراني، وصححه الألباني)

6- عن عبد الله بن زيد قال: لما أفاء الله على رسوله يوم حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَلَمْ يَعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يَصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مَتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي... أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَشَاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ إِلَى رِحَالِكُمْ... إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَهُ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ (متفق عليه)

7- عن أنس أن أناسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ، حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالٍ هَوَازَانَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قَرِيشٍ الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، يُعْطِي قَرِيشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسَيُوفِنَا تَقَطُّرٌ مِنْ دِمَائِهِمْ... فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ... فَقَالَ: فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدَ بَكْفَرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ؟... فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثَرَهُ شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ، قَالُوا: سَنَصْبِرُ (متفق عليه)، وَأَضَافَ أَنَسُ عِنْدَ الْبَخَارِيِّ: فَلَمْ نَصْبِرْ

8- عن أنس قال: أَرَادَ النَّبِيُّ (ص) أَنْ يَقْطَعَ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: حَتَّى تَقْطَعَ لِإِخْوَانِنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِثْلَ الَّذِي تَقْطَعُ لَنَا، قَالَ: سَتَرُونَ بَعْدِي أَثَرَهُ (أَيُّ يُفْضَلُ غَيْرَكُمْ نَفْسَهُ عَلَيْكُمْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا)، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي (البخاري)

9- عن أسيد أن رجلا من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلاناً؟ قال: ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض (متفق عليه)

10- عن كعب بن عجرة أن رسول الله (ص) قال له: أُعِيذُكَ بِاللّٰهِ يَا كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ مِنْ أَمْرٍاءَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ أَوْ لَمْ يَغْشَ فَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعْنَهُمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَسِيرُدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ (الترمذي واللفظ له، والنسائي، وقال الألباني: حسن صحيح)

11- عن خَبَّابٍ عَنِ النَّبِيِّ (ص): إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أَمْرَاءُ، فَلَا تَصَدِّقُوهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَا تُعِينُوهُمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ، فَإِنَّ مِنْ صَدِّقِهِمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ لَمْ يَرُدُّ عَلَى الْحَوْضِ (ابن حبان والطبراني، وصححه الألباني)

#### 2.4.2 تعقيبات واستشكالات

الرّوايات الأولى (1 - 5) تَعُدُّ فَقَرَاءَ (وبلفظ: صعاليك!!) المهاجرين بالسّبق إلى الشّرب من الحوض، وهي تتوافق مع روايات أخرى تَعُدُّ نَفْسَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ قَبْلَ غَيْرِهِمْ بِخَمْسِ مِائَةِ عَامٍ. فَهَلْ سَيَقُومُ الْجَزَاءُ عَلَى أَسَاسِ مَعْيَارِيٍّ اجْتِمَاعِيٍّ وَقَبْلِيٍّ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَمَّا جَاءَ فِي الْكِتَابِ مِنْ أَنَّهُ سَيَكُونُ بِطَرِيقَةٍ فَرْدِيَّةٍ؟ وَهَلِ الْفَقْرُ وَالذَّلُّ وَالْإِبْعَادُ عَنْ دَوَائِرِ الْقَرَارِ مُؤَشِّرٌ عَلَى الْأَفْضَلِيَّةِ وَمَعْيَارٌ لِلسَّابِقِ لِلْفُوزِ فِي الْآخِرَةِ؟ أَلَمْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ بِالْغِنَى؟ وَهَلْ كَانَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَجْهَلُ الرّوايات الواردة بشأن الحوض وهو الذي تَرَبَّى عَلَى أَيْدِي كِبَارِ الْمُحَدِّثِينَ (2)؟ وَهَلْ سَيَزْدَحُمُ الْمُجَاهِدُونَ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْحَوْضِ بِرَغْمِ قَلَّةِ عَدَدِهِمْ مُقَابِلَ سَعَةِ الْحَوْضِ (3 و 4)؟ وَهَلْ مَجْرَدُ امْتِلَاكِ أَحَدِ السَّابِقِينَ بِالْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ لِمَنْزِلٍ بَسِيطٍ كَفِيلٌ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ زَمْرَةِ السَّابِقِينَ إِلَى الْحَوْضِ (5)؟

الروايات التالية (6 - 9) تدور حول فكرة ما سيلقاه الأنصار من الأثرة عليهم، وتنقل لنا أمرًا نبويًا لهم بالصبر على ظلمهم مقابل ما سيلقونه من تكريم عند الحوض. ومن الجلي الإشارة أنّ الأثرة المقصودة في هذه الروايات تتعلق بشؤون الملك وإدارة موارد أموال الدولة. وأسأل: هل بدأ النبي بالأثرة على الأنصار بإعطاء المؤلفه قلوبهم غنائم حنين، على كثرتها، ولم يعط الأنصار منها شيئاً (6)؟ وهل سيمن النبي على الأنصار في سياق دفاعه عن حرمانهم من غنائم حنين، وهم الذين وآثروه مع من هاجر معه على أنفسهم؟ وهل مفهوم المؤلفه قلوبهم الذي صاغته الرواية يعبر فعلاً عن المراد القرآني من هذه الشريحة من الناس؟

أسأل: أليس من الرّاجح أنّ الأرستقراطية القرشيّة التي صنعت روايات جعلت الملك محصوراً فيها مُسوّغاً هي التي صنعت مجموع الروايات السابقة (1 - 9)؟ ألا تكاد تنطق هذه الروايات بأنّ المستفيدين منها هم الملوك والسلاطين، والذين من مصلحتهم تدجين الفقراء وتصييرهم على الإستبداد والفقير الذي حلّ بهم، وخاصّة المهاجرين والأنصار الذين قامت عليهم أسس دولة المدينة؟ أليس في هذه الروايات الإيحاء بأنّه لن يكون لفقراء المهاجرين (أي غير القرشيين منهم) وللأنصار من خيار سوى الصبر على استئثار الأرستقراطية القرشيّة (الأمويون والعباسيون) بالسلطة؟

وقد يذكر أحدنا الروائيتين الأخيرتين لتبرئة الرواية من محاباة الإستبداد السياسي عموماً، والقرشي خصوصاً، ويمكن الردّ على ذلك من وجوه، منها أنّ العقل الروائي متشاكس، ولكنّ ذلك لا يمنع أنّه في عمومه موالياً للسلاطين، ومنها أنّ هاتين الروائيتين تحدّران من إعانة الحاكم الظّالم، على أنّها لا تشكّك في شكل التّوريث كسبيل للإستحواذ على السلطة، فضلاً عن أن تدعو إلى الخروج على الحاكم الظّالم.



## 2.5 أصناف المخرومين من ورود الحوض والشرب منه

### 2.5.1 أهم الروايات الواردة في هذا الباب

1- عن أنس عن النبي (ص): ليردنّ عليّ الحوض رجال ممّن صاحبي، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ اختلجوا دوني، فلاقولنّ أيّ ربّ أصحابي، أصحابي، فليقالنّ لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك (متفق عليه)

2- عن سهل بن سعد عن النبي (ص): ...وليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم (متفق عليه)، وبزيادة فأقول: سُحُفًا لمن بدّل بعدي

3- عن أبي هريرة عن النبي (ص): بينما أنا نائمٌ إذا زُمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلمّ... إلى النار والله، قلتُ: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم... فلا أراه يخلصُ منهم إلا مثل هَمَلِ النّعَم (البخاري)

4- عن أبي هريرة عن النبي (ص): تردّ عليّ أمّتي الحوض وأنا أذودُ الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله... وليصدّنّ عني طائفة منكم فلا يصلون، فأقول يا ربّ هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملكٌ فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟ (مسلم)

5- عن أسماء عن النبي (ص): إني على الحوض حتى أنظر من يردّ عليّ منكم، وسيؤخذ أناس دوني، فأقول: يا ربّ، منّي ومنّ أمّتي؟! فيقال: أما شعرتَ ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم (مسلم)

6- عن عبد الله عن النبي (ص): أنا فرطكم (أي الذي يصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستقاء) على الحوض، ولأنناز عنّ أقواما ثم لأغلبنّ عليهم، فأقول يا ربّ أصحابي، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك (متفق عليه)

7- عن سهل بن سعد عن النبي: إني فرطكم على الحوض، من مرّ عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، ليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يُحال بيني وبينهم. قال

أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعتُ من سهل؟ فقلتُ: نعم، فقال: أشهدُ على أبي سعيدٍ لسمعته وهو يزيدُ فيها: فأقول: إنهم منِّي، فيقال: إنك لا تدري ما أخذتوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن غيرَ بعدي (البخاري)

8- عن عُمر بن الخطاب عن النَّبي (ص): إني مُمسكٌ بحجزكم عن النار، هلمَّ عن النار، وتغلبوني تقاحمون تقاحم الفراش أو الجنادبة، فأوشك أن أرسل بحجزكم، وأنا فرطكم على الحوض، فتردُّون عليَّ معًا وأشتاتًا، فأعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجلُ الغريبةَ من الإبل في إبله... فأقول: أي ربِّ قومي، أي ربِّ أمتي، فيقول: يا محمد، إنك لا تدري ما أخذتوا من بعدك، كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم، فلا أعرفنَّ أحدكم يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء فينادي يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد بلَّغتك، فلا أعرفنَّ أحدكم يوم القيامة يحمل بعيرًا له رغاء، فينادي يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد بلَّغتك، فلا أعرفنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسًا لها حمُمة، فينادي يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد بلَّغتك، فلا أعرفنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم... (أبو يعلى والبخاري، جوده الهيتمي والمنذري، وقال الألباني: حسن صحيح)

9- عن أبي الدرداء عن النَّبي (ص): لا ألفينَّ ما نُوزعتُ أحدًا منكم عند الحوض، فأقول: هذا من أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أخذتوا بعدك، قال أبو الدرداء: يا رسول الله أدعُ الله أن لا يجعلني منهم، قال: لستَ منهم (الطبراني والبخاري، ووثقه البيهقي والطبراني)

10- عن أبي هريرة أن رسول الله أتى المقبرة فقال: ودِدْتُ أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد... ألا ليُذادَنَّ رجال عن حوضي كما يُذاد البعير الضالَّ، أناديهم: ألا هلمَّ، فيقال: إنهم قد بدّلوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا (مسلم)

11- عن ابن عباس قال: خطب رسول الله فقال: يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة غُراة غُرُلا... وإنه يُجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربّ أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك... إنّ هؤلاء لم يزلوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم (متفق عليه)

12- عن زيد بن أرقم عن النّبي (ص): ما أنتم بجزء من مائة ألف جزء ممن يردّ عليّ الحوض (أحمد وأبو داود والحاكم، وصحّحه الألباني)

13- عن أبي سعيد عن النّبي (ص): إني فرطكم على الحوض، فإذا جئتم، قال رجل: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان، وقال آخر: أنا فلان ابن فلان، فأقول: أمّا النسب فقد عرفته، ولعلكم أحدثتم بعدي وارتددتم (أحمد وأبو يعلى، ووثّقه الهيثمي)

14- عن زيد بن أرقم قال: كنا مع رسول الله، فنزلنا منزلاً، فقال: ما أنتم بجزء من مائة ألف جزء ممن يردّ عليّ الحوض، فقلنا لزيد: وكم أنتم يومئذ؟ قال: كنا سبع مائة أو ثمان مائة (أبو داود وأحمد، وقال الألباني: رجاله رجال البخاري)

15- عن ابن عمر عن النّبي (ص): من خرج من الجماعة قيّد شبرٍ فقد خلع ربة الإسلام من عنقه حتى يُراجعه، ومن مات وليس عليه إمام جماعة فإن مؤنته مؤنة جاهلية، وخطب رسول الله فقال: إني فرط لكم على الحوض.. وإني رأيت أناساً من أمتي لما دنوا مني خرج عليهم رجل قال: بهم عنّي، ثم أقبلت زمرة أخرى ففعل بهم كذلك، فلم يُفلت منهم إلا كمثل النّعم، فقال: أبو بكر: لعلّي منهم يا نبيّ الله، قال: لا، ولكنهم قوم يخرجون بعدكم ويمشون القهقري (الحاكم وقال على شرطهما)

16- عن ثوبان عن النّبي (ص): إني لبُعُفْر حُوزي أدودُ الناس لأهل اليمن (أي أطرُدُ الناس عنه غير أهل اليمن) أضرب بعصاي حتى يرفُضَ عليهم (مسلم)

17- عن أنس عن النبي (ص): صنفان من أمتي لا يردان الحوض ولا يدخلان الجنة: القدرية والمرجئة (الطبري، قال الأرنؤوط: يغلب على ظني أن في سنده ما يمنع من القول بصحته، ووثقه الهيثمي وابن الوزير، وجوده الألباني)

18- عن عبد الله بن بريدة: شكّ عبيد الله بن زياد في الحوض، فأرسل إلى أبي برزة فاتاه، فلما رآه عبيد الله قال: مُحَمَّدِيْكُمْ هَذَا الدَّحْدَاح؟ فقال: ما كنت أظنّ أني أعيش حتى أبقى في قوم يُعَيِّرُونِي بصُحْبَةِ مُحَمَّدٍ، فقال له عبيد الله: ...هل سمعت رسول الله يذكر فيه شيئاً؟ فقال له أبو برزة: نعم، لا مرّة ولا ثنتين ولا ثلاثاً ولا أربعاً ولا خمساً، فمن كذب به فلا سقاء الله منه (أحمد وأبو داود، وصحّحه الأرنؤوط)

19- عن أبي برزة عن النبي (ص): إنّ لي حوضاً يوم القيامة... من كذب به فلا سقاء الله منه (ابن أبي عاصم، وصحّحه الألباني)

### 2.5.2 تعقيبات واستشكالات

تقول الكثير من الروايات بأنّه سيرد الحوض النبوي كل مؤمن تبدو عليه آثار الوضوء، ولم يتلبس بمانع من موانع ورود الحوض، وهي، بالإضافة إلى ضرورة الصبر (وخاصّة صبر الأنصار على الأثرة عليهم!!)، الانقلاب على الأعقاب، والدخول على أئمة الجور. وفيما يلي بعض الملاحظات حول الروايات السابقة.

اختلف العلماء في تحديد الذين انقلبوا على أعقابهم بعد وفاة النبي. ف قيل هم الذين ارتدّوا ومنعوا الزكاة على عهد أبي بكر، وقيل هم المنافقون الذين لم يعرفهم النبي أو لم يظهر له نفاقهم (وقد أخرج الشّيخان عن النبي (ص): لا يتحدّث الناس أنه كان يقتل أصحابه)، وقيل هم أمة الدّعوة لا أمة الإجابة، وقيل هم الأهواء والكبائر، وقيل هم أصحاب البدع كالخوارج والشيعة... اختلافات عميقة تعكس إشكالية خطيرة لم ينجح أهل الحديث من حلّها، خاصّة وأنّها تتعلّق بفكرة عدالة الصّحابة.

على أنّ كثرة أقوال العلماء لتفسير رواية لا يمكن الجزم بصحتها لا يعني صوابية أحد هذه الأقوال أو بعضها، إذ يمكن ردّ جميع الأقوال السابقة. فمثلاً، لا يمكن أن يكون أصحاب النبي الذين وقع صدّهم عن الشرب من الحوض كفّاراً، بدليل تعريف الرّسول لهم بأنّهم من أمّته وما يظهر عليهم من آثار الوضوء، ولا يصحّ أن يكون هؤلاء من المنافقين بدليل ردّتهم العمليّة بعد وفاة النبي، كما يصعب أن يكونوا من أصحاب البدع، لأنّ النبي تعرّف عليهم، بينما نعلم أنّ شيوخ الشيعة والخوارج والمعتزلة والقدرية والمرجئة ظهروا في فترة متأخرة نسبياً...

وعلى الرّغم من الضبابيّة التي تلفّ حول المطرودين من الحوض، ومع ذلك فإنّه يبدو لي أنّ المقصودين من هذه الشريحة من المؤمنين أصحاب النبي وتلامذته الأبرار من المهاجرين والأنصار. والأدلة على هذا القول كثيرة، منها: "أقوام أعرفهم ويعرفوني"، "رجال ممّن صاحبني" - "حتى إذا عرفتهم" - "منذ فارقتهم"، وكذلك خطاب الرّسول للمحيطين به من أصحابه بقوله لهم "منكم".

على أنّ الرّوايات لا تحصر الممنوعين من الشرب من الحوض في جيل الصحابة، بل تشمل كذلك التّابعين، كما تدلّ عليه عديد العبارات (ولأنّنا عنّ أقواماً ثم لأغلبين عليهم - وإخواننا الذين لم يأتوا بعد - فأقول أما النسب فقد عرفته).

أمّا بالنسبة لقول الجمهور بقلة "الأصحاب" الممنوعين من الشرب من الحوض، مستدلّين على ذلك بأنّ كلمتي "رهط" و"زمرة"، تعنيان في اللغة القلة من النّاس، ومستدلّين أيضاً باستعمال كلمة "أصحابي" بصيغة التصغير، فهو قول غير موفّق. فالتصغير يمكن أن يُفيد معنى قرب وعمق علاقة لهؤلاء الأصحاب مع النبي، بينما تصرّح عديد الرّوايات بأنّ الكثرة من أصحاب النبي ستُحرم من ورود الحوض: "ثم يُحال بيني وبينهم" - "فأعرفكم بسميكم وأسمائكم" - "فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همّل النّعْم" (وهمل النّعْم هي الإبل الضالّة، كناية عن القلة).

وإذا ما قبلنا بأنَّ المقصودين بالإرتداد على الأعقاب أصحاب الرّسول، فحينئذ نقع في الإشكال التالي: أيمكن أن يُقبل هذا الأمر وقد أثنى القرآن على المهاجرين والأنصار؟ ألم يكن هؤلاء هم الذين صاحبوا الرّسول في مسيرته الجهادية، وهم الذين حاربوا المرتدّين على الأعقاب في عصر الخليفة الأوّل، وهم الذين اصطفّ من بقي منهم على قيّد الحياة مع عليّ ضدّ معاوية؟

ثم ترسم لنا الرّواية 15 صورة غاية في الغرابة، يقف فيها النّبي - بزعمهم - على حوضه ليُبعد النّاس بالقوّة حتّى يُفسح المجال لليمنيّين حتّى يشربوا بأريحيّة ومن دون مُزاحمة من أحد!! صورة هي من الغرابة بحيث لا تحتاج التّعليق عليها. ويبدو أنّ الرّواة، وكثيرٌ منهم من اليمن، نسجوا هذه الصّورة السيّئة تكريماً لأنفسهم.

وتخبرنا الرّوايات الأخيرة (16 - 18) عن أصناف أخرى من الممنوعين من الحوض، وهم القدريّة والمرجئة، والمكذّبين بوجود الحوض!! وما سبق يدلّ على وجود من يتجرّأ على تكذيب الرّواة في تحدّثهم عن الحوض، خاصّة إذا كان من أولي البأس (كابن زياد، والي يزيد بن معاوية على العراق)، كما يدلّ على الإستخدام متعدّد الوظائف لمفهوم الحوض، وذلك بتصنيف بعض المغضوب عليهم في زمرة المطرودين من الحوض، أي المحرومين من الشّفاة المحمّدية ومن الجنّة.

### 3. محاولة للتعرف على المُستفيدين من روايات الحوض

#### 3.1 روايات مُساعدة على فهم الدور الوظيفي لحوض

1- عن ابن عمر عن النّبي (ص): من خرج من الجماعة قيّد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتّى يُراجعه، ومن مات وليس عليه إمامٌ جماعة فإنّ مؤتته مؤتة جاهلية، وخطب رسول الله فقال: إني فرط لكم على الحوض.. وإني رأيت أناساً من أمّتي لما دنوا مني خرج عليهم رجل قال: بهم عنّي، ثم أقبلت زمرة أخرى ففعل

بهم كذلك، فلم يُفلت منهم إلا كمثل النّعم، فقال: أبو بكر: لعليّ منهم يا نبيّ الله، قال: لا، ولكنهم قوم يخرجون بعدكم ويمشون القهقري (الحاكم وقال على شرطهما)

2- عن أبي هريرة أنّ رسول الله (ص) قال: بينما أنا نائم، أُريت أنّي أنزع على حوضي أسقي الناس، فجاءني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليرّوحي (ليرحني)، فنزع دلوين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، فجاء ابن الخطاب فأخذ منه، فلم أر نزع رجل قط أقوى منه، حتى تولى الناس، والحوض ملآن يتفجّر (متفق عليه)

3- عن ابن عمر عن النّبي (ص): بينما أنا على بئر أنزع منها إذ جاء أبو بكر وعمر، فأخذ أبو بكر الدلو، فنزع ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، فغفر الله له، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر، فاستحالت في يده غرباً (دلواً عظيمة)، فلم أر عبقرى من الناس يفري فريّه، حتى ضرب الناس بعطن (متفق عليه)

### 3.2 محاولة لتلمس المقصودين من الطرد من الحوض

بعض العناصر الحاضرة بقوة في روايات الحوض وتعلّقها بالسياق التاريخي لما بعد العصر النبوي بفترة زمنية قصيرة (تكريم فقراء المهاجرين والأنصار المظلومين) تدفع باتجاه اعتماد مدخل تاريخي لمحاولة تحديد هويّة الشريحة المقصودة بالإبعاد عن الحوض المحمّدي، خاصّة مع إقرار العلماء بأنّ نشأة النّشاط الرّوائي الكاذب على النّبي كان بسبب الحاجة إليه في المجال السّياسي.

ويؤكّد العلاقة بين فكرة الحوض الأخرى والشأن السّياسي الرّوايات أعلاه، والتي تربط بطريقة تكاد تكون مباشرة بين الحفاظ على طاعة (بيعة) السلطان والطرد من الحوض (1)، وتخبرنا عن تعب النّبي لكثرة من سيسقيهم من النّاس من حوضه (أو من بئرهِ)، وتطوّر أبو بكر ثم عمر على التّوالي لتولي هذه المهمّة بدلا عنه، مشاهد تتمثّل خلافة أبي بكر وعمر، وتقول ضمناً بأفضليّتهما على غيرهما (2 و 3).

كما يؤكّد أهميّة البُعد السياسي في روايات الحوض ما نجده في المدوّنة الشيعيّة، حيث أخرج الشيخ المفيد وغيره عن محمّد الباقر أنّه قال: إذا كان يوم القيامة، جمع الله الناس في صعيد واحد... فيقوم رسول الله فيتقدّم أمام الناس كلّهم، حتّى ينتهي إلى حوض طوله ما بين أيلة وصنعاء، ثمّ يُنادي بصاحبكم، فيقوم أمام الناس فيقف معه، ثمّ يؤذن للناس فيمرون، فبين واردٍ يومئذٍ وبين مصروفٍ، فإذا رأى رسول الله من يُصرف عنه من محبّينا بكى وقال: يا ربّ شيعة عليّ، فيبعث إليه ملكًا فيقول له: يا محمّد، ما يُبكيك؟ فيقول: وكيف لا أبكي وأنا من شيعة عليّ أراهم قد صُرفوا تلقاء أصحاب النار ومُنعوا من ورود حوضي، فيقول الله عزّ وجلّ له: يا محمّد، قد وهبُتهم لك، وصفحتُ لك عن ذنوبهم، وألحقتهم بك ومن كانوا يتولّونه من ذريّتك، وجعلتُهم في زمرتك، وأوردتُهم حوضك، وقبلتُ شفاعتك فيهم، وأكرمتُهم!!

وسأنطلق في البحث عن هويّة الشريحة المطرودة من الحوض من فرضيّتين: فإمّا أن يكون هؤلاء الذين بدّلوا وارتدّوا وانقلبوا على أعقابهم وأحدثوا (وهي أفعال أقرب إلى المجال السلوكي منها إلى المجال العقائدي) هم الذين اختاروا موقع معارضة الأمويّين منذ إعلان معاوية تمرّده على الحكم المركزي، وإمّا أن يكون هؤلاء هم الذين ساندوا الأمويّين في التأسيس لملكهم.

وباعتبار ما ذهبُ إليه سابق من أنّ تفسير الكوثر بنهر في الجنة جاء على الأرجح ردّا من شيعة معاوية (أهل السنة) على شيعة عليّ، وبأنّ الروايات تحدّثت عن كثرة ارتدّت عن المنهج النبوي، والمعلوم أنّ الكثرة ممّن تربّوا في المدرسة النّبويّة اصطفت وراء عليّ ضدّ معاوية، فإنّي أرجح الفرضيّة الأولى. يقوّي الأخبار التّالية:

- عن الشعبي قال: حضرت عائشة (أي عند احتضارها)، فقالت: إني قد أحدثت بعد رسول الله حدثًا ولا أدري ما حالي عنده، فلا تدفنوني معه، فإنّي أكره أن أجاور رسول الله (الذهبي)، ما يؤكّد أنّ الإحداث يتعلّق بالمجال السياسي



- عن المسيّب قال: لقيت البراء بن عازب فقلت: طوبى لك، صحبت النبي وبايعته تحت الشجرة، فقال: يا ابن أخ، إنك لا تدري ما أحدثنا بعده (البخاري). وتروي لنا كتب التاريخ أنّ البراء شهد مع عليّ الجمل وصفين والنهر وان

- عن سلمة ابن الأكوع أنّه دخل على الحجاج فقال: يا ابن الأكوع، ارتدّدت على عقبيّك، تعرّبت (أي انتقلت للسكن مع الأعراب)؟ قال: لا، ولكنّ رسول الله أذن لي في البدو... فلما قُتل عثمان بن عفان، خرج سلمة إلى الرّيزة (موضع في البادية بين مكة والمدينة، والذي انتقل إليه من قبله أبو ذرّ) ، وتزوّج هناك امرأة، وولدت له أولاداً، فلم يزل بها، حتى قبل أن يموت بليال نزل المدينة (متفق عليه)، خبرٌ يدلّ على أنّ الاتّهام بالردة كان من نصيب معارضي الحكم الأموي

وقد يُستدرك على القول السابق أنّه من المستحيل أن يكون المقصودين من الإبعاد عن الحوض النّبوي شيعة عليّ، والكثير منهم من المهاجرين والأنصار الذين أشاد بهم القرآن، فلم يكن الرّواة ليجرؤوا على الإساءة إليهم. ويمكن الردّ على هذا الإستدراك بالتذكير بأنّه في زمن الفتنة، كان لعن عليّ ركناً من أركان خطبة الجمعة، وشرطاً للحصول على الوظيفة الحكومية. فلا يُستغرب والحال هذه أن تُصنع متونٌ تلمز أصحاب النبي بسبب عدم خضوعهم لمنطق المنتصر، والذي يُحدّد بسيفه وقلمه الجماعة المهتدية والجماعة الضالّة المرتدة

## الخاتمة

إذا كانت سورة الكوثر من المتشابهات، فإن استقرائها مضامينها يشير إلى أنها تتوجّه بالإشادة إلى نبيّنا الخاتم، جزاء على سلامة قلبه وعظيم جهاده في سبيل حسن القيام بمهامّه، وإلى أنّه لا علاقة لها البتّة بأيّ مظهر من مظاهر الجزاء الأخروي. وبدلاً من أن يردّ السلف المتشابه إلى المُحكم، فإنّهم اعتمدوا على الرّواية لتوجيه دلالات الآية، الأمر الذي أدّى إلى تلبّيس الحقّ السماويّ بالباطل الإنسانيّ.

فالحوض يظهر من خلال مجموع الرّوايات وكأنّه جزاء دون الجزاء، وكأنّه مشهدٌ مقطوعٌ عن منظومة الحساب والجزاء الإلهيّة التي فصلّها القرآن الكريم، بحيث تمّ في هذا المشهد تغييب الله جلّ جلاله، ليجعلوا الرّسول نائباً عنه، وحارساً لحوض مائيّ مساحته مئات آلاف الكيلومترات المربعة.

ومن خلال تحليل ما بين أيدينا من هذه الرّوايات المتعلّقة بالكوثر والحوض النّبوي، فقد خلصت إلى فرضيّة مفادها أنّ هذه الرّوايات لعبت دوراً وظيفيّاً ضمن الدّفاع الطائفي الذي ميّز تاريخنا الإسلاميّ بين السنّة والشيعة، والدّفاع السياسي والعسكري الذي عرفته الدّولة المسلمة منذ تولّي عليّ الحكم. كذلك قدّرت أنّ الشّريحة المقصودة من المنع من ورود الحوض هم الذين اختاروا الوقوف مع عليّ، السّائر على المنهج النّبوي، في مواجهة معاوية، الأرسنقراطي القرشي المنقلب على هذا المنهج.

وإنّ التّاريخ يعلّمنا أنّه لا حدود لما يمكن يقوم به الإنسان من أجل السّلطة، ومن أمثلة ذلك ما وصلنا من أخبار من أنّه لما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان، والمصحف بين يديه، أطبقه وقال: هذا آخر العهد بك!! والذي ما إنّ صلّى على مروان ودفنه حتّى صعد المنبر فقال: إني والله ما أنا بالخليفة المصانع، ولا الخليفة المستضعف... والله لا يأمرني أحد بعد يومي هذا بتقوى الله إلا ضربت عنقه!!